بحصار دائري لا فكاك منه، ولأنه كذلك فإن كل ابتعاد لا يكون إلا واهماً. فالابتعاد والاقتراب يدوران في مساحة محكومة بوجود العدو، وفي هذه الساحة يساوي الاقتراب الابتعاد، أو يساوي السجن الانتظار، فالزمن الحايد لا وجود له في زمن الصراع، والفلسطيني «يولد في السجن أو المعركة والانتظار» (ص ٥٠).

في الزمن الفلسطيني الحاضر، يكتشف الإنسان حدود فرديته، ويدرك أن تحقق مشروعه الفردي مستحيل، وأن هذا المشروع، في حقيقته ووهمه، هو جزء من مشروع جماعي يتحرك في التاريخ، وعندها تتوحد المصائر، وتواكب المصائر الفردية المصير الجماعي، أي يصبح المصير الجماعي هو المرآة الحقيقية التي يرى فيها كل فلسطيني مساره الذاتي. وفي هذه العلاقة بين الفردي والجماعي يستجلي طموح الفلسطيني وإحباطه أيضاً: في الطموح والاشراق يرى الإنسان ذاته علاقة من كل أو يرى الكل في ذاته، وفي الإحباط والانكسار يدرك أن فرديته المستقلة لا تستطيع التحقق، أي أن التحقق الناقص في طموحه الفردي هو الشرط الأساسي للتحقق الجماعي في التاريخ: «وماذا تنتظر؟ تحقيق الحلم؟ وما كانت الأحلام قيد خطوة أو خطوات. سنوات قد تعقبها أجيال، الشعوب تراهن على التاريخ، أما تاريخ الفرد فأقصر» (ص ٤٤).

يبدأ الاحتلال بالأرض، وينتهي باغتصاب الوجود الإنساني اليومي، واحتلال الأرض هو احتلال وعي الإنسان وذاكرته وأحلامه. وإذا وحدنا بين الإنسان والأرض، ندرك أن اغتصابها هو احتلال للإنسان، ونقله من مستوى العفوية والحلم، إلى مستوى القصرية والأحلام المستحيلة:

– «تمر بي العيون السود وتثير رعشة. لكن وجيب الأرض والبندقية أقوى. ضاعت البراءة خلف القضبان واختبأت في ذكريات الطفولة. ولا شيء سوى الصفحات ونعيق السجان» (ص ٧١). هذا هو السجن الصغير الذي تندثر بين جدرانه الأحلام، أما السجن الكبير فيقول أشياءه الكثيرة:

– «سياج من قدامهم وسياج وراهم وسياج من الشرق وسياج من الغرب. وحواليهم أغراب وأجانب ولسانات تربطن بكل اللغات إلا بالعربي» (ص ٦٧). وهكذا تتكاثر دلالة السجن في التجربة الفلسطينية، يصبح السجن بلا جدران، لكن غياب الجدار يجعل الأسر أكثر مرارة وفداحة، لأنه يحيل الوطن إلى: «مقبرة كبيرة».

يقف الوعي أمام السجن القديم والجديد، يبحث عن إجابة لأسئلته المعقدة، لكنه لا يلبث أن يعرف بعد حين أن تعقد الإجابة هو تعقد الواقع، وأن ارتباك الأسئلة مزروع في واقع معقّد لا يعطي وضوحه إلا لممارسة مثابرة، أي أن أزمة الوعي هي أزمة الواقع المعاش الذي يفرض ضرورة وحدة صعبة ومتناقضة: وحدة الدفاع عن الأرض والعمل عند من يغتصبها، أو التوحيد بين طريق تصل إلى الرغيف اليومي دون أن تصل الطريق إلى الوطن. تستعيد سحر خليفة هنا أسئلة رواية «الصبار» وتدفعها إلى متاهتها الحقيقية المحكومة بأكثر من حصار وعدو وسمة: